

تذكر المصادر أن المأمون كان يميل الى أخيه المعتصم لشجاعته وقوة شكيمته ومثانة خلقه وهي صفات تضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته ، ولهذا قدمه على ولده العباس في ولاية العهد . وتضيف تلك المصادر أن عدداً كبيراً من الجنود رفضوا مبايعة المعتصم بالخلافة بعد وفاة المأمون وارادوا تولية العباس بن المأمون ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة حسماً للفتنة واحتراماً لوصية أبيه . ولقد أفاض المؤرخون في وصف شجاعة المعتصم وقوته الجسمانية : فهو يحمل ألف رطل بسهولة ويمشي بها خطوات ، ويلوي عموداً من الحديد حتى يجعله طوقاً ، ويضغط على الدينار باصبغه فيمحو كتابته ... الخ وكل هذه الروايات هي من باب الاساطير الشعبية التي تدل على ان المعتصم كان جندياً شجاعاً بطبعه ويعتز بقوته البدنية كصفة من هذه الصفات العسكرية . غير أنه يلاحظ أن المعتصم كان الى جانب تلك الصفات رجلاً محدود الثقافة ضعيف الكتابة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن تأييده للمعتزلة في رأيهم القائل بخلق القرآن ، كان تنفيذاً لوصية أخيه المأمون وليس نتيجة لثقافة عالية .

اهم شيء يتميز به عهد المعتصم هو اهتمام هذا الخليفة باقتناء الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل : سمرقند ، وفرغانة ، وأشروسنة ، والشاش ، وخوارزم . وكان ذلك اما عن طريق النخاسة أي الشراء ، واما عن طريق الأسر في الحروب ، واما عن طريق الهدايا التي كان يؤديها ولاية هذه الاقاليم على شكل رقيق الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة في الاقاليم التركية . ومن ثم صارت أقاليم ما وراء النهر مصدراً هاماً للرقيق التركي الذي صارت تجارته أعظم مهنة هناك على حد قول بعض المؤرخين الأوربيين .

ولقد امتلأت بغداد في عهد المعتصم بأولئك الجنود الترك الذين بلغت عدتهم بضعة عشر ألفاً . وقد ألبسهم المعتصم أفخر الملابس ، وسمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى الى اصطدامهم بالناس في الطرقات ، واثارة سخط أهل العاصمة . واضطر الخليفة نتيجة لذلك الى الانتقال الى سامرا التي بناها على مسافة مائة كيلو متر شمالي بغداد لتكون عاصمة له ، ومقراً لجيوشه التركية من الممالك والأحرار. وما زالت توجد من بقايا هذه المدينة مثذنة جامعها ذات السلام الخارجية (الملوية) التي على طراز الأبراج البابلية القديمة المعروفة باسم الزكورات . ويرى بعض المؤرخين أن ميل المعتصم للجنس التركي يرجع الى أن

أمه كانت تركية اسمها ماردة أو مارية ، وهذا الرأي صحيح من غير شك ، الا أنه يلاحظ أيضاً أن المعتصم حينما استخدم العنصر التركي أراد أن يتخلص من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء . إذ أنه وجد أن سياسة الدولة قد صارت بسبب المنافسة الشديدة بين العرب والعجم أشبه برجل يركب جوادين في وقت واحد . فهو على شفا السقوط .

وكان المأمون قبل ذلك قد لمس هذه الحالة وأقبل على استخدام المماليك الاتراك في حرسه ، ثم جاء أخوه المعتصم فتوسع في استخدام هذا العنصر الحديد اعتقاداً منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس ومن العصبية التي عرف بها العرب . ولكن هذه السياسة عادت على البلاد بضرر كبير سوف

تظهر نتائجها فيما بعد منذ مقتل المتوكل بن المعتصم سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، إذ أخذ هؤلاء الاتراك يتدخلون في شئون الدولة حتى صار « الخليفة في أيديهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه .

الحدث الثاني الذي يمتاز به عصر المعتصم هو قضاؤه على الثورات الداخلية التي استعصت على أخيه المأمون من قبل وهي ثورة الهنود الزط التي هددت مرافق الدولة في جنوب العراق ، وقد قضى عليها القائد العربي عجيف بن عنبسة سنة ٢٢٠ هـ . ثم ثورة بابلك الحرمي الفارسي التي قامت في الاقاليم الجبلية الشمالية بنواحي أذربيجان وقد قضى عليها القائد الفارسي الاصل حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين وهو لقب ملوك اقليم اشروسنة الذي كان اباؤه أمراء عليه من قديم . وقد تخلص المعتصم من قائده الافشين بعد هذا النصر العظيم الذي أحرزه على الحرمية . فقد اتهمه البعض بالارتداد عن الاسلام ، بينما اتهمه البعض الآخر بأنه كان ينوي الخروج عن طاعة العباسيين والاستقلال ببلده اشروسنة . وكيفما كان السبب فان حياة هذا القائد انتهت في السجن بعد أن منع عنه الطعام حتى مات .

أما الحدث الثالث والأخير الذي يمتاز به عصر المعتصم ، فهو انتصاره الحاسم على البيزنطيين في عمورية بآسيا الصغرى سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) . ومن أخبار هذا الفتح أن الامبراطور تيوفيل البيزنطي انتهاز فرصة انشغال المعتصم في مطاردة الحرميين وأغار على الحدود الاسلامية وهاجم مدينة زبطره Azopetra

وهي أقرب الثغور الاسلامية إلى بلاد الروم ، فأحرقها ونحربها وقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها . وغضب المعتصم لهذا الحادث خصوصا وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته . ويضيف ابن الأثير ان امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في أسر الروم : « وامعتصماه ! فلما بلغ ذلك المعتصم أقسم بأن ينتقم من الروم وأن يخرب مدينة عمورية Amorium مسقط رأس والد الامبراطور البيزنطي وأهم مدينة في الاناضول . ثم جمع المعتصم جيشا كبيرا تولى قيادته بنفسه ، ويقال ان اسم عمورية كان منقوشا على درع كل جندي من جنود المسلمين .

وثقدم المعتصم بجيوشه حتى التقى بجيش تيوفيل فهزله ونحرب مدينة انقره ثم حاصر مدينة عمورية التي تقع بجوار انقره ، وبعد حصار شديد تمكن المعتصم من اقتحام المدينة عنوة وتخريبها وأسر من فيها . وهكذا انتقم المعتصم من الروم على ما فعلوه في زبطره ، وكان انتقاما رائعا وصفه الشاعر أبو تمام بالقصيدة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويقال ان المعتصم كان يريد أن يواصل فتوحاته إلى القسطنطينية لولا أن اكتشف مؤامرة دبرها ابن أخيه العباس مع القائد عجيف بن عنبسه الذي سبق أن قضى على ثورة الزط . فاضطر المعتصم أن ينهي الحرب مع الروم ، ويقبض على العباس وعجيف ويمنع عنهما الماء إلى ان ماتا .

ولم يعيش المعتصم بعد ذلك طويلا اذ أنه أصيب بمرض قضى عليه في أوائل سنة ٢٢٧ هـ .